المسلمون في ألمانيا الاتحادية (٢)

الطلبة المسلمون

الأخ نبيل شبيب

تحدثنا في مقال سابق في (الرائد) عن العمال الأتراك المسلمين في ألمانيا الاتحادية ، وهم يمثلون حوالي نصف الجالية الإسلاميّة التي نقدر تعداد أفرادها بمليونين وخمسمائة ألف نسمة .

وواجهتنا في العمل على متابعة البحث حول أوضاع الطلبة المسلمين في ألمانيا الاتحادية الذين يقضون فترة زمنية محدودة في الجامعات والمعاهد ودور التدريب المهنية الألمانية ، ثم يعودون لخدمة بلادهم أو يستقر بهم العمل كمتخرجين في ألمانيا الاتحادية .. واجهتنا صعوباتٌ تعترض كلَّ من يبحث في هذا الموضوع ، لقلة المصادر المتوفرة وعدم نشر المؤسسات الإحصائية والاجتماعية والوزارات المختصة معلومات دقيقة مباشرة في هذا المجال .

وتقول الإحصاءات إنّ نسبة النصارى البروتستانت إلى مجموع عدد السكان (٤٩%) ، ونسبة النصارى الكاثوليك (44,6) ، بينما لا يزيد تعداد اليهود الألمان على (32.000) نسمة ، وذلك من أصل حوالي (٦٢) مليون نسمة يقطنون البلاد . أما المسلمون فيُجمَلون مع سواهم تحت تعبير : (ما عدا ذلك) ممّا يمثل (6,4%) من السكان أي ما يعادل أربعة ملايين نسمة[١]

لمحة إحصائية

لا تفرق النشرات الصادرة عن الجامعات والمعاهد الألمانية أو المؤسسات الإحصائية بين الطلبة الأجانب من حيث ديانتهم بل تورد أعدادهم غالباً حسب البلد الذي يحملون جنسيته أو المادة التي يدرسونها .

ويبلغ مجموع عدد الطلبة الأجانب في الجامعات والمعاهد العلمية حالياً (٤٥) ألف طالب ، نصفهم تقريباً من البلدان النامية[٢] ، ويقدر عدد المسلمين منهم -استناداً إلى جنسياتهم- بحوالي (١٤) ألف طالب[٣] ، وثلث هؤلاء تقريباً من العرب وثلثهم الآخر من الإيرانيين يليهم الإندونيسيون بنسبة (١٥%) ثم الأتراك بنسبة (١٠%) ، وينتمي (٨%) إلى البلدان الأخرى كأفغانستان وباكستان وغانا وغيرها ..

وترتفع بين الطلبة المسلمين العرب نسبة السوريين والمصريين والأردنيين -وبينهم حاملو الجنسية الأردنية من الفلسطينيين- يليهم العراقيون والليبيون والسعوديون[٤]

وتبلغ نسبة الطالبات إلى مجموع عدد المسلمين من الطلبة حوالي العُشْر أي ما يعادل (1.400) طالبة مـــسلمة ، معظمهن من إيران وتونس ومصر[٥]

ويتوزع الطلبة المسلمون في الفروع الدراسية وفق الصورة التقريبية الآتية :

حوالي (٢٣%) في الفروع الهندسية المختلفة

و(١١%) في علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، ومعظم هؤلاء في مرحلة التخصص

و(١١%) في الطب والصيدلة

و(١٠%) في الكيمياء والفيزياء والرياضيات

و(٥%) في علوم الأحياء وطبقات الأرض والجغرافيا

ويوجد حوالي (١٣%) في الكليات التحضيرية لمعادلة الشهادة الثانوية وفي مرحلة تعلم اللغـــة الألمانيـــة ، كمـــا ينتسب (٥%) إلى المعاهد الفنية والتربيوية ، ويتوزع الباقون على دراسات أخرى[٦]

وقد كانت قوانين الدراسة الجامعية عامة وما يتعلق بدراسة الطلبة الأجانب في ألمانيا الاتحادية خاصـــةً موضـــعاً للبحث أكثر من مرة في الأشهر الماضية على مستوى المجلس النيابي الاتحادي والمجلس الوزاري والوزارات المختصة .. ويؤخذ منها أن الجهات المسؤولة قررت تضييق نطاق الموافقة على طلبات انتساب الطلبة الأجانب في المستقبل وفرض قيود جديدة عليهم .. مما تعود أسبابه الحقيقية إلى النقص في مقاعد الدراسة الجامعية المتوفرة والرغبة في عدم رفع نسبة الـ ٦% منها المخصصة للطلبة الأجانب[٧] .

الظروف الاجتماعية :

عندما نتحدث عن الطلبة المسلمين فلا بدَّ من الإشارة إلى تفاوت أوضاعهم الاجتماعية تفاوتاً كـــبيراً حـــسب البلدان التي ينتمون إليها . ممّا له أبعد الأثر على سلوك الطالب المسلم في المجتمع الغربي المـــادي . ويتمتـــع الطلبـــة القادمون من البلدان الإسلاميّة الأثرى من سواها بوضعٍ مادي جيد . إذ يعتمد معظمهم -كالـــسعوديين والليبـــيين مثلاً- على المنح الدراسية السخية من حكوماتهم ، فضلاً عن الدعم المادي القوي من ذويهـــم ، ســـواء في ذلـــك أصحاب المنح منهم أم سواهم .

أما الطلبة الفلسطينيون أو السوريين أو الأفارقة –على سبيل المثال لا الحصر– فلا يجدون في غالب الأحوال مناصاً من العمل إلى جانب الدراسة لتأمين نفقات معيشتهم . وقد يوجد مكان العمل حيناً ويُفتقَد حيناً آخـــر فتتـــأرجح دراسة الطالب وتتأرجح حياته حسب ظروف عمله[٨] .

وليست نسبة المتزوجين بين الطلبة المسلمين بشكل عام مرتفعة ، وقد يُقدِم الطالب الزواج قبيل انتهاء دراســـته ، ولكن يندر أن يتزوج قبل بدئها إلاّ إذا كان مجيئه بقصد الاختصاص فقط . وترتفع بين المتزوجين نـــسبة المتـــزوجين بنساء ألمانيات بشكل ملحوظ ، وغالب هؤلاء ممّن يفكر بالاستقرار بعد تخرجه ، وربما في الحصول علـــى الجنـــسية الألمانية .

ويأتي الطالب المسلم –غالباً– شاباً حديث السن قليل الخبرة ضعيف الدراية ، اعتاد في معظم الأحوال الاعتمـــاد على ذويه في تأمين حاجاته اليومية ولا سيما ما يتعلق بأموره المنـــزلية ولكنه نشأ في وسط لا تزال فيه بقيـــةٌ مـــن الأخلاق الإسلامية تلزم المجتمع بحدودٍ معينة ومفاهيمَ أخلاقيةٍ ثابتة ..

ويأتي وهو –في نفس الوقت– مشبعٌ بما صورته له أجهزة الإعلام في بلده ، بل وكتبه الدراسية وأحاديث المجتمع من حوله ، من مدنية أوروبا و(تقدمها) و(حرياتها) .. فيجد نفسه –وهو دون العشرين من عمره– في بلد غريب لا يتقن لغة سكانه ، ولا يعلم ما يكفي عن عاداتهم وتقاليدهم ، ولا تصوّر لديه عن قوانينهم وأنظمتهم .. وهـــو الآن مسؤول عن إيجاد مسكن لنفسه وضمان استقراره في جامعته ، وتأمين سائر حاجاته في المسكن والجامعة والـــسوق ، وربما المصنع أيضا ..

ولا شك أنه سيحتاج إلى فترة من الزمن ليتلاءم مع هذا الوضع ، وأنه ستنتابه حالات من الضيق والكآبة وربمـــا يساوره شعور بالفشل واليأس ، وبينما يشتد به الحنين إلى أهله تتنازعه المغريات في المجتمع الغريب من حوله .

ولا عجبَ هنا أن يزداد الشعور بالحاجة إلى العون والمساعدة ، ويزداد الاستعداد لتقبّل ما يعرض على الطالب من ذلك وإن ارتبط بظروف تتنافى مع بعض جوانب تربيته ومعتقداته .

وأول ما يكون هذا في **المسكن** ، إذ يبدأ الطالب الجديد في التفتيش عن غرفة لدى أسرة ألمانية فتواجهـــه تلـــك النظرة المتعالية لدى أصحاب المساكن من الألمان الذين يفضلون الطالب الأوروبي أو الأمريكي على الطالب الآسيوي أو الأفريقي[٩] ، وينعكس هذا على سلوك الطالب المسلم إذا وجد ضالّته .. إذ يجد نفسه يعيش مع أفراد أسرة غريبة عنه وهو في موقف الضعيف الذي يقتبس من عاداتهم وتقاليدهم وإن تناقضت مع الشخصية التي يريدها الإسلام لـــه قويةً أصيلةً متميزة .

حتى وإن وجد الطالب المسلم مجالاً للسكن في (نزل الطلبة) فقد يسهّل هذا عليه تنظيم أمور معيشته ، ولكنـــه لا يبدّل الظروف الاجتماعية التي يواجهها وتؤثر على شخصيته وسلوكه تأثيراً سلبياً عميقا .

ويأتي دور **الجامعة** .. حيث يفتح الجو الجامعي –وقد أدركه الانحلال والفساد الاجتماعيان عامةً– الـــسبلَ الـــتي تهيّئ له أسباب الانزلاق على شكل رحلات جماعية وحفلات مختلطة وغير ذلك ، يقوده إليها في غالب الأحيان مـــن سبقه من الطلبة المسلمين أنفسهم وأصبح –في هذا المجال– أشبه بفخ لاصطياد أخيه المسلم الجديد .

وفي كل مدينة جامعية مؤسستان ، إحداهما باسم (الرابطة البروتستانتية) والثانية باسم (الرابطـــة الكاثوليكيـــة) ، أخذتا على عاتقهما –بالتعاون مع المؤسسات الجامعية الأخرى ومؤسسات المنح الدراسية المختلفة– استقبال الطلبـــة الأجانب الجدد ، ولا سيما المسلمين منهم ، لتمارس بينهم تحت شعار التعارف بين الشعوب نشاطاً كبيراً عن طريق الرحلات والحفلات وفتح أبواب الإغراء بكل وسيلة ممكنة ، أو عن طريق استغلال حاجـــة الطالـــب الجديـــد إلى المساعدة ، إذا تؤمّن له المنـــزل أو تعينه على ذلك وتدعوه في نفس الوقت إلى حضور حفل راقص .. أو ترشـــده في أمر يتعلق بدراسته وتعمل في ذات الحين على إقامة صلة صداقة بينه وبين فتاة ما . ويقوم على هذه الجهود –تحـــت رعاية الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية ودعمهما– مختصون متفرغون يدركون السبيل الأقرب إلى الغاية المنشودة ويعرفون كيف تُجنَّد الضحايا لإسقاط ضحايا جديدة .

وكما هو الحال في السكن والجامعة فقد يجد الطالب المسلم المرغَم على **العمل** نفسَه في ظروف تَضطَرُّه إلى القيام بأعمال تتناقض وما يؤمن به من تعاليم دينه الحنيف ، كما تتعارض مع ما نشأ عليه في مجتمعه الأصلي .. كأن يعمل في توزيع كؤوس الخمرة في مطعم .. أو تَضطَرُّه إلى الخضوع لأنظمة تعرقل أداء واجباته التعبدية مثل الصلاة .. وإلاّ وجد نفسه موضع السخرية والاستهزاء في كثير من أعماله وتصرفاته .

ويساهم هذا الوضع الاجتماعي في أن يكون الطالب المسلم في بداية حياته الجامعية عرضةً للخضوع إلى المغريات والاستجابة إلى الأهواء والنـــزعات النفسية .. ما لم يكن لديه سلاح ذاتي من إيمان قوي يعصمه من الزلل ويدفعه إلى التمسك بشخصية إسلامية قوية متميزة .

العمل الإسلامي على صعيد الطلبة :

يأتي الطالب المسلم –في أفضل الأحوال– حاملاً معه ذخيرة من العاطفة الإسلامية الصادقة وربما قسطاً من الوعي الإسلامي الناضج . فإذا يسّر الله له اللقاء بإخوان سبقوه يتعرفون عليه ويقدمون له العون لمواجهة مشاكله بروح مَنْ لا غَرضَ له إلاّ رضاء وجه الله تعالى .. فقد يفتح ذلك الطريق أمامه ليكون على الزمن ركيزة من ركـــائز العمـــل الإسلامي خلال إقامته خارج بلاده وبعد عودته إليها ..

ولا شك أن الجمعيات الطلابية الإسلامية القائمة في معظم المدن الجامعية بألمانيا الاتحادية قادرة بشيء من الـــدعم على أداء مهمتها على هذا الصعيد خير أداء استناداً على الدعوة بالقدوة والتعامل على أساس الشريعة الإسلامية .

وتزداد قدرة هذه الجمعيات على القيام برسالتها في الدعوة عن طريق التعاون المـــشترك والتخطـــيط المـــدروس والاستفادة من الخبرات السابقة وتنسيق الطاقات المتوفرة ، ممّا حقق في السنوات الأخيرة مردوداً لا شك في قيمتـــه ، كان لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا والمركز الإسلامي في آخن دور أساسي فيه .

وتقع على الخريجين المسلمين في هذا الإطار مسؤولية أكبر من مسؤولية ســـواهم ، فهـــم أصـــحاب الخـــبرات والإمكانات في غالب الأحوال ، وهم الذين إذا استقر بهم المقام في ألمانيا الاتحادية كانوا من الركائز الثابتـــة للعمـــل الإسلامي فيها ، وإذا عادوا إلى بلادهم الأصلية كان عليهم العمل بما يتوفر لهم من سبل من أجل تقويم السياسة المتبعة في إرسال الطلبة المسلمين للدراسة في الجامعات الغربية على أساس ما كان لهم من خبرات عملية مباشرة .

والطلبة المسلمون عامةً أشدُّ من سواهم احتكاكاً بالجيل الشاب المتعلم في ألمانيا الاتحادية وهم بذلك -إذا جسّدوا الإسلام كما ينبغي- أقدر من سواهم على ترك الأثر الإيجابي عنه لدى المجتمع الغربي .. وتلك هي الخطوة الأولى على طريق التعريف بالإسلام ونشره في ذلك المجتمع .

كما أن فترة بقاء الطلبة المسلمين مرحلية تنتهي غالباً بانتهاء دراستهم واختصاصاتهم والعودة إلى بلادهم .. فبهم يمكن أن يتحقق على الزمن إنشاءُ جيلٍ إسلامي مؤمنٍ بربه مخلصٍ في عقيدته عالمٍ بإسلامه وعصره واعٍ لقضايا أمتـــه وقضايا العالم من حوله قادرٍ على خدمة الإسلام والمسلمين بطاقاته العلمية والاختصاصية ليكون بذلك كلـــه الرائـــدَ لأمته على الطريق الصحيح .

---

(١) الكتاب الإحصائي السنوي : (Weltalmanach) الصادر عن دار نشر (فيشر) الألمانية ، ١٩٧٦م .

(٢) عن صحيفة (فرانكفورتر روندشاو) في ٧٥/٠٨/٠٩م ، استناداً إلى مصادر الوزارة الاتحادية للتعاون الاقتصادي والتنمية ، ويضاف إلى الرقم المذكور أعلاه حوالي (16.700) طالب أجنبي في المعاهد المهنية والتدريبية ، منهم حوالي (٨) آلاف مسلم .

(٣) قياساً على النسب الواردة في الإحصاءات الرسمية السنوية للمؤسسة الاتحادية لشؤون الإحصاء بمدينة (فيسبادن)

(٤) نفس المصدر السابق مع ملاحظة أن هذا التوزع كان عام ١٩٧٢م الذي تتوفر عنه إحصاءات رسمية ، وطرأت تحولات في هذه الأثناء مثل ارتفاع عدد الليبيين والسعوديين .

(٥) و(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) صحيفتا (دي فلت) و(زود دويتشه تسايتونج) يوم ٧٥/٠٨/٢١م ، ونشرة المجلس النيابي الاتحادي الإعلامية بتاريخ ٧٥/٠٥/٢٣م .

(٨) تقول مصادر الوزارة الاتحادية للتعاون الاقتصادي والتنمية ، إن (٤٥%) من الطلبة الأجانب من البلدان النامية يقطعون دراستهم بسبب اضطرارهم إلى العمل ، عن صحيفة (فرانكفورتر روندشاو) يوم ٧٥/٠٨/٠٩م .

(٩) نشرت صحيفة (دي فلت) في عددها الصادر يوم ٧٥/٠٩/١٠م تحقيقاً حول لما يواجه الطلبة الأجانب في بون -كمثال- من صعوبات في البحث عن سكن مع بداية كل فصل دراسي ، ونشرت محاولة لتعليل ذلك بأسباب (نفسانية) لدى المواطن الألماني وذلك على لسان أستاذ مختص بالعلوم النفسانية من جامعة بون ، وعلى لسان طالبة إندونيسية في كلية العلوم النفسانية بجامعة بون أيضا . وقد سبق التعرض لموضوع النظرة إلى الأجنبي بألمانيا الاتحادية في العدد (١١) من (الرائد) ص ٢٠ .